

التناص الصريح والضمني في رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ

Explicit and implicit intertextuality in Al-Jahiz's message on the desire for homeland

أ.د. عمارة بوجمعة

كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)

boudjemaaamara@yahoo.fr

أميني سامية

كلية الآداب واللغات والفنون
جامعة سيدي بلعباس (الجزائر)

aminiamina778@gmail.com

تاريخ القبول: 2024/12/10

تاريخ الاستلام: 2023/09/19

الملخص:

يبحث هذا المقال العلمي في بنية التفاعل الفني في رسالة الحنين إلى الأوطان للجاحظ والكشف عن التناص الصريح والضمني الذي يدخل في تشكيل نظام الكتابة وتأدية المعنى الجمالي الذي اختاره الجاحظ في هذا النوع من الكتابة الفنية التي تميزت عن أشكال الفنون النثرية الأخرى التي عرفت الثقافة العربية في القديم. لقد أبدع الجاحظ أسلوبا خاصا استوعب به أشكال النصوص الأدبية المختلفة وعبر بها عن مقاصده المختلفة.

الكلمات المفتاحية: الجاحظ. التناص. النثر. الثقافة. الأسلوب.

Abstract:

This scientific article examines the structure of artistic interaction in Al-Jahiz's Letter of Desire for Homeland and reveals the explicit and implicit intertextuality that enters into the formation of the writing system and the performance of the aesthetic sense that Al-Jahiz chose in this type of writing. an artistic writing that was distinguished from other forms of prose art that Arab culture knew in antiquity. Al-Jahiz created a special style in which he absorbed the forms of different literary texts and expressed his different intentions through them.

Keywords: Al-Jahiz. Intertextuality. Prose. Culture. Style

مقدمة:

لم تعد النصوص في النقد المعاصر نصوصاً محايدة ومعزولة، وإنما صارت حدثاً فنياً لا ينتهي من التفاعل والحوار، وإذا كانت الكتابة انتهت في الوقت المعاصر إلى شرط المحاوراة والانفتاح¹، فإن الكتابة العربية القديمة عرفت هذا النوع من التفاعل في أجناسها الفنية المختلفة. وكان الجاحظ في رسائله المختلفة أكثر الأدباء استيعاباً لحضور النصوص وتفاعلها في فن الرسالة الأدبية على نحو خاص.

تناول رسالة الحنين عند الجاحظ² علاقة الإنسان بموطنه، فالإنسان شديد الارتباط العاطفي بمسكنه، فمعنى الرسالة وغرضها استمرار لغرض الحنين الذي عرفه الشعر الجاهلي، فالحنين إلى الأوطان يعد الجانب الانفعالي الاسمي الذي يعبر عن معنى ارتباط الفرد بموطنه وحبّه لطبيعته، وهذا اللون قديم قدم الإنسانية، وقد اختلفت معانيه خصوصاً في الشعر الحديث وتبعاً لهذا الاختلاف في المعنى حظي الحنين إلى الأوطان باهتمام وافر من طرف الشعراء ليصبح بهذا عرضاً شعرياً مميزاً ولا ننسى بعض النقاد الذين تناولوا هذا الموضوع في مؤلفاتهم وفنوعهم المختلفة³:

1- رسالة الحنين وأنواع التداخل الفني

في رسالة الحنين يدمج الجاحظ بين أجناس أدبية مختلفة أولاهما الشعر، ثم نجده كذلك يستشهد بأقوال العلماء والفلاسفة والأدباء والنقاد والقرآن الكريم ولكن الملفت للانتباه أنّ الجاحظ لم يورد أسماء الشعراء الذين أدخل نصوصهم في رسالته هذه وكذا بعض النقاد حتى في اقتباسه من القرآن الكريم نجده لا يذكر اسم السورة التي أخذ منها ولا رقم الآية المذكورة وكذا في الحديث النبوي الشريف وهذا ما يوجب علينا ذكر أنواع هذا التداخل بين الأجناس الأدبية حيث نلفيه يأخذ مظهرين صريح وضمني.

أ- التداخل الصريح:

هذا النوع من التداخل الصريح يكون بحضور النصّ والشاهد الأدبي مع ذكر اسم صاحبه، ويأتي لخدمة غرض ما أو البرهنة على رأي ما، حيث يورد هذا الشاهد كما هو، أو يأخذ بتجويز في المعنى بما يلائم الغرض الذي ضمنه، وقد وجدناه في رسالة الحنين إلى الأوطان كقوله في الاستشهاد بقول الفلاسفة: "الغريب كالغرس الذي زایل أرضه... فهو ذابل"، لا ينضر، وقال بعض الفلاسفة فطرة الرجل بحب موطنه.

ولذلك قال "أبقراط": "يداوي كلّ عليل بعقاقير أرضه، فإنّ الطّبيعة تتطّلع لهوائها، وتنتزع إلى عذابها" وقال "أفلاطون": "غذاء الطّبيعة من أنجع أدوتها، وقال "جالينسيون": "يتروح العليل بنسم أرضه كما تتروح الأرض الجذبة ببلل القطر"⁴، فهو هنا يستشهد عن علاقة الإنسان بأرضه وحاجته لها بأقوال الفلاسفة، فهنا نلفي تداخل صريحاً بين

الأجناس الأدبية لأنّه ذكر لنا اسم وصاحب الشّاهد الذي استعمله هنا لغرض معيّن وهو حاجة الإنسان الكبيرة بمسقط رأسه (أرضه ووطنه).

ثمّ يذهب للاستشهاد بقول الأديب وهو "ابن العباس" ويصرّح باسمه ويذكر قوله "كما قال ابن عباس لوقيع التّاس بأرزاقهم قناعتهم بأوطانهم ما اشتكى عبد الرزق"⁵، وهذه بعض الأمثلة وليست كلّها لأنّ الرّسالة غنيّة من هذه الجهة.

ثمّ يذهب للاستشهاد بالقرآن الكريم قائلا: "...ومّا يؤكّد ما قلناه في حبّ الأوطان قول الله عزّ وجلّ حين ذكر الدّيار بخير عن مواقعها في قلوب عباده فقال: (ولو أنّا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليلا منهم)"⁶ غير أنّ الملفت للانتباه أنّه لم يذكر لنا اسم السّورة القرآنية...

يذهب الجاحظ في مجال تقاطع نصّه مع نصوص أخرى عبر استشاداته تجنس آخر ألا وهو الشّعْر الحيث يستشهد لنا بأبيات شعرية تخدم موضوعه الحنين ويذكر لنا أصحابها وقائلها، كقوله: "أنشدنا المازني:"

اقرأ على الوشل السّلام وقل له

كلّ الموارد مذ هجرت ذميم

حبل ينيف على الجبال إذ بدا

بين الغدائل والرّمال مقيم⁷

وعلى هذا المنوال ينسج الجاحظ رسالته ونحن أدرجنا فقط مثال من كل جنس تتناص معه الرّسالة "الحنين للأوطان".

غير أنّ هناك ظاهرة ملفتة للانتباه أنّه في كثير من الاستشهادات والأقوال التي يوردها في الشّعْر أو النثر لا يذكر اسم صاحبها، حتى أنّه لا يذكر لنا عند اقتباسه من النصّ القرآني اسم السّورة ولا حتى رقم الآية وهذا نوع آخر من التّدخل الذي لمسناه من خلال رحلتنا القرآنيّة لهذه الرّسالة.

ب- التّدخل الضمني:

وهذا التّدخل يكون بحضور نص أو معنى نص دون ذكر صاحبه أو الإشارة للمصدر الأصلي، وهو نوع عرف عند القدماء كثيرا وسموه بالأخذ اللطيف.. وهو نوع لجأ إليه الجاحظ كثيرا في رسائله وخاصة في الجدّ والهزل والتّربيع والتّدوير.⁸ وعموما يدخل هذا النوع من التّدخل في جميع السياقات التي يستلهم فيها الكاتب المعاني والصّور من نصوص بعينها دون أن يذكر منها مقطعا بحذافيره أو جزاء من صورته اللفظية أو عبارة معروفة في جنس أدبي.

وهذا النوع من التّدخل في الرّسالة "الحنين الى الاوطان" كان ميزة الجاحظ، حيث نلفيه يستشهد بنصوص شعرية دون ذكر أصحابها مقل قوله: "فكان إذا ذكر التربة والوطن حنّ إليه حنين الإبل إلى أعطائها⁹، وكما قال الشاعر:

إذا ما ذكرت الثّفر خاضب دمعي وأضحى فؤادي بهتة للهمام⁸
حنينا إلى أرض بها أخضر شاري وحلّت بها عني عقود التّمام⁹
وألف قوم بالفتي أهل أرضه وأرعاهم للمرء حقّ التّقام

كما قال آخر:

يقرّ بعيني أن أرى من مكانه ذرا عقدات الأبرق المتقاود
وأن أرد الماء الذي شربت به سليمى وقد ملّ السرى كلّ واحد⁹

وعلى هذا النمط يكمل الجاحظ رسالته باقتباس وتضمين أبيات شعرية دون ذكر لأسماء أصحابها والذي ذكرناه مجرد نموذج لأن الرسالة بطبعها لها حجم كبير.

ونلفيه في موضع آخر يقول: "والله ما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقتلهم إذ لا يدينون بدين إلاّ لضنّه بهم"¹⁰، وهذا شاهد لا يحضر فيه الجاحظ النص الأصل المقتبس منه وعلى الأرجح يكون آية من القرآن الكريم لأنّ الله عزّ وجلّ كان يأمر الرّسول صلى الله عليه وسلم بإنزال الوحي عليه... وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على تضمين غير صريح للجاحظ.

وكذا قوله: "وقيل لآخر: ما السرور؟ قاله عيبة تفيد غنى..."¹¹ فعبارة - وقيل لآخر - تحيلنا مباشرة إلى اقتباس ضمني مع أنّه يورد القول غير أنّه لا يذكر اسم صاحبه...

ويمثل هذا الاتجاه في كتابة الرسائل لونا من ألوان التّداخل الضمني للتّصوص، تتمّ فيه محاكاة أجناس أدبيّة جادّة لتكوين بنية سردية متشعبة بالتّراث والذين معا ما جعل الرسالة غنيّة من حيث النّاحية الثّقافية والأدبية، وبهذا تقوم بها تلك التّداخلات الأجناس في نص واحد.

2- وظائف التّداخل بين التّصوص والأجناس في الرسالة الأدبية:

يتولّد من خلال إدراج التّصوص في الرسالة للنوادر بشكل ضمني أو صريح جملة من الوظائف التي ذكرها جاكسون¹²، ويمكن تلخيصها كالآتي:

1. الوظيفة البنائية التعليمية:

وتظهر هذه الوظيفة من خلال التأكيد على اعتماد الرّصيد الثّقافي مادّة لتكوين الصّورة، "فيصبح التّرسّل الأدبي منزعا تعليميا وذلك بأخذ التّرسّل من الغرض الأدبي سياقاً لتزويد القارئ المتعلّم بشاهد يختاره"¹³.

وتعتمد هذه الوظيفة على إثراء الجانب الوصفي التعبيري للكاتب والملاحظ في بداية رسالته بثري رصيده اللغوي حول موضوعه من خلال ذكر نزعة تقليب استحضار أخبار العرب في حنينها إلى أوطانها حتى عند الملوك وما ذكر عنهم مروراً إلى حنين الحيوان إلى وطنه في قوله: "...جليل السلطان تديبه له من عشائر العرب سادتها وفتياتها... وشجعانها يقود الجيوش ويسوس الحروب، وليس بجانبه إلا راغب إليه أو راهب منه، فكان إذا ذكر التربة والوطن حنّ إليه الإبل إلى أوطانها، وكما قال الشاعر:

وإذا ذكرت الثغر فاضت مدامعي وأصخي فؤادي نغبة للهماهم¹⁴
حيناً إلى أرض بها إخضرّ شاري وحلّت بها عني عقود التمام¹⁵

وهنا اعتمد الملاحظ الشاهد في تركيب الصورة (التشبيه) ونلمس هنا أن الملاحظ وكأنّه يصل إلى إبداع في هذا المجال الوصفي وذلك بالدمج بين لغة الشر ولغة الشعر كما أنّ مدعّم لغرض يخوض فيه الكاتب وهنا الملاحظ دمج بين حنينه لوطنه ويستشهد بأن هذا الإحساس مشترك بين الإنسان العادي والمتقّف وحتى الملوك ثمّ يذهب أن حتى الحيوان يحنّ لوطنه وقد خصّ له كتاب فيه عدّة أجزاء اسمه (الحيوان)، وقد دمج تعبيره هذا بشاهد من قوله لم يذكر لنا اسمه، فالملاحظ هنا لم يضع هذا الشاعر كركن من أركان الصورة، وإنّما هو اطمئنان منه للتعبير المألوف والموجود في التراث، وهو نوع من أنواع الاجتهاد الأدبي، من خلال حرصه على الاقتباس والاستشهاد بالرّصيد الثقافي لتكوين الصّورة الأدبية حتى تصبح منزعا سليما لبناء غرض أدبي كالتشبيه الذي أورده لنا الملاحظ هنا.

وهذا النوع من التناص نلفيه كثيرا في رسالة الملاحظ الحنين للأوطان... ضمن أغراض شتى كقوله: "...وكان يقال أرض الرّجل ظفرو داره مهده، والغريب الثنائي عن بلده المتنحي عن أهله، كالنواذر عن وطنه - الذي هو لكلّ رام قنيصه، وقال آخر: الكريم يحنّ إلى جنانه كما يحنّ الأسد إلى غابه، وقال آخر الجالي عن مسقط رأسه ومحلّ رضاعه...، وقال آخر عسرك في دارك أعزّ لك من يسرك في غربتك، وأنشد:

اتقرب الدّار في الاقدار خير من العيس الموسع في اغتراب¹⁴

فنلمس هنا صورة غابة في الجمال تتداخل فيها النصوص الأدبيّة لأداء غرض أدبي غاية في الرّوعة حيث يتناص الشعر مع التثر ضمن وظيفة بنائية تعليمية حيث يشبه حسن الإنسان لوطنه كإحساس بعض الحيوانات لأوطانها ويدعم كلّ ذلك بقول من الشعر يزيد من قوة التشبيه والتعبير عن حرارة هذه الإحساس.

وقارئ الرّسالة على طولها سيجد نفسه يصطدم كثيرا بهذا النوع من التداخل أو التناص بين الأجناس الأدبيّة... سواء ضمن هذه الوظيفة أو وظيفة أخرى وردت كثيرا في النصّ.

2. الوظيفة الإيحائية: (جاكوبسون).

يمكن أن يكون الشاهد الأدبي قطعة من نصّ يحيل إليه الكاتب وأنّ فهم المرسل إليه للنصّ الجديد وهذه الدلالة للشاهد قد يوحي السياق الأصلي الذي أخذ منه ذلك الشاهد، فإنتاج المعنى في النصّ الذي يدرج فيه الشاهد يمكن أن يتمّ عبر إحياء ذلك الشاهد، فهو يخفي نصّاً يعرفه القارئ، ويستحضره في ذهنه أثناء رحلته القرائية، وهذه الوظيفة الإيحائية أكثر ملائمة في مجال الترسل من الوظيفة الأولى (الثنائية)¹⁵، وذلك أنّ من خصائص الترسل تناسب التخاطب وتكافؤ المتخاطبين في المستوى الثقافي "فاستخدام الشواهد عناصر من نصوص يحال عليها القارئ يدلّ على تسليم الكاتب بقدره مخاطبه على النفاد إلى ما وراء النصّ من دلالات لازمة في السياق الأصلي"¹⁶.

وكان لهذه الوظيفة في رسالتنا الحظّ الوفير فنحن إذا ما ولجنا إلى ذكرها سنأخذ على سبيل المثال لا الحصر بعض الأمثلة الواردة في الرسالة نظراً لكثرتها في الرسالة حيث نجد الجاحظ يقول في أحد صفحات الحنين للأوطان "ومن حنّ الناس للوطن وقناعتهم بالعطن إن إبراهيم لما أتى بها جر أم إسماعيل مكة فأسكنها وليس بمكة أنيس... فدعا إبراهيم ربّه—فقال ربّ إني أسكنت ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم فأجاب الله دعاءه إذ رضي به وطنا وبعث جبريل عليه السلام فركض موضع زمزم برجليه فنبع منه زمزم"¹⁷.

فنتلمس هنا تداخل ضمنى بين الرسالة وبعض قصص القرآن الكريم وهي قصة سيّدنا "إبراهيم" عليه السلام مع زوجته "هاجر" وقصة ماء زمزم...، حيث يوحي هذا التداخل مع القصص القرآني إلى عظمة هذا الإحساس الإنساني المتجدر في التراث القديم وبالغ الأثر داخل النفس البشرية، حتى أنّه جاء له ذكر في النصّ المقدّس، والجاحظ هنا يجعل هذا التناص مع القرآن الكريم دون أن يذكر لنا اسم السورة التي ضمت هذه القصة بل ذكر أشخاصها وأحداثها مركزاً على ذلك في دلالات الحنين المترامية الأطراف في شتى المجالات ومنذ قديم الزمان ونلفيه في موضع آخر يقول "وفي المثل أوضح من مرآة الغريبة وذلك أنّ المرأة إذا كانت هدياً في غير أهلها تتفقّد من وجهها وهيئتها مالا تتفقّده وهي في قومها وأقاربها، فتكون مرآتها مجلّوة تتعهد بها أمر نفسها وقال "ذو الرمة":

لها أذن خشر وذفري يسليه وخدّ كمرآة الغريبة أسجع¹⁸

وهو يورد لنا هذا الشاهد الأدبي لما له من دلالات توحى بالوحشة والحنين للوطن حيث تلجأ هذه المرأة لتبحث عن ملامح وطنها من خلال وجهها في المرأة مدعماً ذلك بقول ذو الرمة، الذي أبان هذا الإحساس في بيته الشعري هذا وهكذا نجد هنا تداخل ثلاث نصوص في آن واحد تعبّر الجاحظ عن إحساس الحنين للوطن ويتضمنه الروايات التي أوردت إحساس المرأة الغريبة عن وطنها وحنينها وشوقها الذي تحاول تخفيفه من خلال البحث عن ملامح وطنها في مرآتها مدعماً ذلك بنصّ لبّيت شعري لشاعر كبير وهو ذو الرمة، وكلّ وتحد منها يوحي بدلالات الحنين والشوق والوحشة للوطن.

وهذه الرسالة حبلى بهذا النوع من التداخل بين النصوص وغرض الجاحظ من كل هذا هو تبيان عظمة موضوع رسالته "الحنين للأوطان".

التداخل بين الشعر والنثر في مقاصد الكتابة وأغراضها:

لعل احتضان الرسائل لمقاصد الشعر حدث تاريخي مرتبط بتطور الحياة الثقافية في البيئة الحضرية، وتطور أوضاع التخاطب والتواصل بين المتكلمين في هذه المقاصد ومخاطبيهم، وكذا مقاصد المتكلم نفسه، "وبهذا فإن صلة الرسائل بالشعر من حيث المقاصد، وهو أن لأوضاع التخاطب دورا حاسما في تحويل مقاصد الشعر وأغراضه إلى مقاصد وأغراض ترسلية خطابية"¹⁹، انطلاقا من هذا القول وتطبيقه على رسالة الحنين للأوطان نجد الجاحظ في تناصيه أو بالأحرى في مجال الدمج بين النثر والشعر وعلى كثرتها في الرسالة كانت جلها تدور حول غرض واحد ومعنى واحد ألا وهو:

✓ معنى الشوق:

حيث حشد لنا الجاحظ في الرسالة حشدا كبيرا بين الأبيات الشعرية وشعراء مختلفين وتدور كلها حول معنى الشوق والحنين للوطن والتربة، فهذا التداخل بين النثر والشعر في الرسالة له معنى واحد وهو الشوق للوطن وهو معنى مرتبط بوضع الكاتب نفسه، فالجاحظ نفسه عاش هذا الإحساس بتركه مسقط رأسه البصرة التي كان يحب لها وحتى أنه رجع إليها ومات فيها، وكان يذكر هذا الحنين في الكثير من المواضع وفي العديد من كتاباته، ولعل هذه الحرارة التي عاشها الجاحظ، حيث حشد لنا في هذه الرسالة حوالي 96 بيتا لشعراء مختلفين، تصب كلها في معنى الشوق والحنين للوطن...، وكل بيت ينم عن معان عديدة ويوح بأهات تخرج من سواد القلب وعمق الألم الذي خلفه الحنين للوطن، وكأن الجاحظ هنا يحاول أن يجسد في كل سطر من سطور هذه الرسالة عمق هذا الشعور المتجدد في الطبيعة الإنسانية من بداياتها الأولى مستشهدا بأقوال لكبار الشعراء، وهناك أبيات على الرغم من أنه لم يذكر أصحابها إلا أنها زادت رسالته معنى وبهاء كبير خصوصا هذا الموضوع الإنساني الذي حاول الجاحظ تفسيره، ومن مجموع ما جاء عند الجاحظ في رسالته الحنين للأوطان من أبيات شعرية كما يلي:

وقال الفرزدق:

لكسرى كان أعقل من تميم	ليالي فرّ من بلد الضباب
فأسكن أهله ببلاد ريف	وجنات وأنهار عذاب ²⁰

وقال ذو الرمة:

إذا هبت الأرواح من نحو جانب	به الأهل من هاج قلبي هبوبها
-----------------------------	-----------------------------

هو تذرّف العينان منه وإنّما وهو كلّ نفس حيث حلّ حبيبها²¹

فهو هنا يدخل غرض الغزل في الحنين للوطن لأنّ هذه النفس تذكرت الحبيب والذي تركه خلفه في وطنه فكان له شوقان شوق للحبيبة وشوق للوطن معا.

وقالت امرأة من عقيل:

جليلة من سكان ما وان هاجني هبوب جنوب مرّها ونيسامها²²

وأنشد حمّاد بن إسحاق الموصلي:

أحبّ بلاد الله ما بين صارة إلى غطفان أن يصوب سحابها

بلاد بها نيطن علي تئامي وأوّل أرض مسّ جسمي تراها²³

ومن هنا التداخل الكبير في الرسالة ما جعل موضوعها عند الجاحظ "الحنين" يبلغ ذروته بالخصوص، وذلك أنّه أغنى رسالته هذه بالشواهد الكثيرة وشعراء كثر وأي أحد يبحث في هذا الموضوع عند الشعراء، فإنّ الجاحظ في هذه الرسالة لخصّ له الطّريق لهؤلاء الشعراء وما قالوه عن الحنين، فالرسالة تلمّ على ثروة ثقافيّة ومعرفيّة زاخرة في موضوع الحنين للأوطان.

التداخل بين النثر والقرآن الكريم:

وهذا التلاقي بين التّصوُّص أو التّناص أخذ نصيبه من النصّ المقدّس "القرآن الكريم" إذ نلّفي الجاحظ في رسالته هذه وفي مواطن عدّة يستشهد بالقرآن الكريم بشكل مباشر وغير مباشر، فنجدّه يتناص مع القرآن مباشرة في قوله مثلاً: "ومن أصدق الشّواهد في حبّ الوطن أنّ يوسف عليه السّلام لما أدركته الوفاة أوصى أن تحمل رُمّته إلى موضع مقابر أبيه وجدّه يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السّلام، وروى لنا أنّ أهل مصر منعوا أولياء يوسف من حمله فلمّا بعث الله موسى عليه السّلام — وأهلك على يديه فرعون وغيره من الأمم — أمره أن يحمل رُمّته إلى تربة يعقوب والشام وقبره معلوم بأرض بيت المقدس بقرية تسمى حسامي، ولذلك يعقوب مات بمصر فحملت رُمّته إلى إيلياء قرية بيت المقدس وهناك قبر إسحاق بن إبراهيم عليهما السّلام".²⁴

وهنا نلّفي أنّ نص الجاحظ (الرسالة) يتقاطع مع عدّة قصص للأنبياء ذكرت في القرآن الكريم، والجاحظ أشار إليها أو أخذ من القرآن لكن دون ذكر اسم السّورة فهو تناص غير مباشر أو تداخل ضمني، ربّما لأنّ الجاحظ أراد الاختصار لتبيان أنّ الحنين للوطن إحساس عميق حتى الأنبياء وذكر في قصص الأنبياء جاءت أولاً في المصحف الشّريف، ومن هذا التداخل الكثير في الرسالة...

ونجد هنا تداخل مباشر بين النثر والقرآن حين يذهب الجاحظ في قوله: "ومما يؤكّد ما قلناه في حبّ الأوطان قول الله عزّ وجل حين ذكر الديار يخبر عن مواقفها من قلوب عباده فقال: (ولو أنا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلّا قليلا منهم)²⁵، فهو هنا يذكر لنا الآية دون ذكر اسم السّورة ولا رقم الآية.

التداخل بين النثر وأقوال الفلاسفة والحكماء والمأثور عند العرب من أقوال وأمثال:

لقد تعمّق الجاحظ في هذا الموضوع "الحنين للأوطان" وقد أفاض في التعبير عنه، وأغناه من شتى الجوانب في رسالته هذه حتى أنّه ذهب في استشهاده لهذا الموضوع درجة أنّه تقاطع موضوعه هذا بأقوال للفلاسفة والحكماء والمأثور لدى العرب من أقوال وأمثال حول هذا الموضوع ما زاد في ثراء هذا الموضوع وسعته وجعله مادّة دسمة في هذه الرسالة ففي مجال:

الحكمة:

يقول الجاحظ في رسالته "كما قالت العجم: من علامة الرّشد أن تكون النّفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة، وقالت الهند: حرمة بلدك عليك كحرمة أبويك"²⁶، وهو هنا يورد لنا حكما لبلدان أخرى.

ويقول كذلك "قالت الحكماء الحنين من رقة القلب، ورقة القلب من الرّعاية، والرّعاية من الرّحمة، والرّحمة من كريم الفطرة، وكريم الفطرة من طهارة الرّشد، وطهارة الرّشد من كرم المحب"²⁷.

ويقول أيضا: "وقالت الحكماء: أكرم الخيل أخرعها من السّوط، أكيس الصّبيان وأبغضهم للكتاب... وأكرم الإبل أشدّها حنينا إلى أوطانها"²⁸؛ وهنا ذكر لنا بعض ما استحضر الجاحظ من أقوال الحكماء وليس كلّها، فالرسالة هذه غنية بالحكم حول هذا الموضوع...

الفلسفة:

ونجد كذلك في هذا الموضوع يتقاطع أو تتداخل مع آراء الفلاسفة في حديث عن الحنين للوطن، فيقول: "وقال بعض الفلاسفة فطرة الرّجل معجونة بحبّ الوطن، لذلك قال أبقراط: يداوي كل عليل بعقاقير أرضه، فإنّ الطّبيعة تتطلّع بهوائها، وتنزع لغذائها؛ وقال أفلاطون: غداء الطّبيعة من أنجع أدويتها، وقال جالينوس: يتزوج العليل بنسيم أرضه، كما تتزوج الأرض الجذبة بببل القطر"²⁹.

وبهذا كان يتداخل النصوص أو الأجناس الأدبية وتناصها خصب ومتنوعا وعميقا في هذه الرسالة، والجاحظ في هذا الموضوع لم يكنف بتعبيره الخاص ولا باعتماده الموروث العربي الجليل حول هذا الموضوع، بل لجأ إلى موروث أجنبي

وما أعمق هذا التناس إذا كان مع أقوال لفلاسفة عظماء اليونان وكان الجاحظ لم يترك لغيره البحث أو القول في موضوع الحنين للأوطان...

المأثور عند العرب من أقوال وأمثال:

وهو يدخل الكثير مما قاله أكبر أدباء ونقاد العرب القدامى وفي عصره حول موضوع الحنين من أقوال وأمثال، حيث يقول في موضع من الرسالة: "وقال عبد الحميد الكاتب وذكر الثنايا نَفَثْنَا عن الأوطان، وَقَطَعْنَا عن الإخوان"³⁰. ويقول "وفي المثل أوضح من مرآة الغريبة".

يقول في موضع آخر: "وحدّثني الثوري عن رجل من عرينه، قال حدّثني رجل من بني هاشم، قال قلت لأعرابي من بني أسد من أين أقبلت، قال: من هذه البادية، قلت: وأين تسكن منها مساقط الحمى ضرية بأرض لعمر الله ما نريد بها بدلا ولا ينبغي عنها قولاً..."³¹.

وكل هذه النصوص المتداخلة في الرسالة تصبّ حول معنى واحد هو الشوق النابع من موضوع وإحساس الحنين للوطن، والغالب في هذه الرسالة والذي لا يخفى عن أي قارئ حتى ولو كان عادي هو التداخل الكبير بين الشعر والنثر، الذي اعتمده القدامى عامة وليس الجاحظ فقط، وذلك "حرصا على إثبات ملكيتهم للنصين معا"³² أي النص النثري والنص الشعري وذلك لأنّ ظاهرة المزاوجة بين النثر والشعر يدخل فيها تضمين التأثر لأشعار غيره، "حين تحوّلت هذه الظاهرة إلى سنن أسلوبية وتعاقد بين الكاتب وقرائهم حول ملكية النص الأدبي، وإنّ هذا الأسلوب المحدود ضمن أساليب البديع ليس مجرد ترصيد للنثر بالشعر أو تنويع أسلوبية، وإنّما هو طريقة من طرف إثبات النص لصاحبه وإثبات وضعه المزدوج في هذا النوع من الإنشاء أي وضع التأثر والشاعر في آن واحد..."³³.

ثم إنّ هذه الظاهرة أي التداخل بين النثر والشعر في الرسائل الأدبية يبرز في مستوى بنية الخطاب، له عدّة مقاصد منها: تقوية القول في نفس المعنى بإعادة إخراج شعرا إن صنع في البداية نثرا أو العكس، فإذا تصدرت هذه الرسائل الشعر يكون يقصد ضمان حسن الافتتاح وإذا كان في نهايتها ليتحقق بذلك حسن المخرج أو الختام، وحتى وإن جاء في وسطها فهو يزيد المعنى وضوحا والتّركيب جمالا

كما أنّ وجوه استعمال الشعر في تركيب الرسائل عامّة قد قوّت ظاهرة التّصنيع، وأنّجّحت بفهوم النظم في الرسائل وجهة لا تختلف كثيرا من حيث نتائجها الجمالية عمّا أدّت إليه سائر وجوه التّضمين والاقتراس والاستشهاد، وقد تفتّن المترسلون وعلى رأسهم الجاحظ في هذه الرسالة في تصوّر إمكانيات الجمع بين الشعر والنثر، فتنوعت طرق زخرف هذه الرسالة، ونلفي "إبراهيم ابن المدبر" في هذا المجال يقول: "إنّ تضمين المثل السائر والبيت الغابر ممّا يزيّن كتابك ما لم تخاطب خليفة أو ملكا جليل القدر، فإنّ اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجلّة والرؤساء عيب واستهجان للكتب، إلّا

أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصّانع له فإنّ ذلك ممّا يزيد في أهبتّه ويدلّ على براعته³⁴، وهنا هذا الناقد يظيف إلى الجانب الجمالي الذي يضيفه هذا التداخل بين الشعر والنثر، الجانب الدلالي وتعميق الفكرة، وبهذا قد زاد هذا التداخل في الرسالة "الحنين للأوطان" للجاحظ، بين الشعر والنثر جانب جمالي بالإضافة تعميق الدلالة فيها لمفهوم الحنين للأوطان، وتنوعت تداوله في شتى المجالات في الفلسفة...

الخاتمة:

ترجع أهمية الرسائل الأدبية بوصفها الفن الأمثل على حفظ ذاكرة الثقافة والنصوص وتثبيتها وجعلها أداة مستمرة للتواصل والاخبار والامتناع، لقد امتازت رسائل الجاحظ بالمرونة الفنية والاسلوبية التي جعلتها قادرة على التفاعل مع الفنون الأخرى واستيعاب كثير من الأفكار التي عرفت ثقافة الكاتب وثقافات المجتمعات الأخرى.

الهوامش:

- ¹ ينظر نخلة فيصل أحمد. التفاعل النصي النظرية والمنهج. الهيئة العامة لقصور الثقافة مصر. ط1-2010. ص5
- ² ينظر أبو عثمان الجاحظ رسالة الحنين الى الأوطان. دار الرائد بيروت لبنان ط2-1982.
- ³ ينظر: ميشال عاصي، الشعر والبيئة في الأندلس، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1970، ص53
- ⁴ - الجاحظ، رسالة الحنين الى الأوطان، ص10.
- ⁵ - المصدر السابق، ص10 - 11.
- ⁶ - نفسه، ص12.
- ⁷ - الجاحظ، رسالة الحنين الى الأوطان، ص32.
- - الأعطان: مبارك الإبل عند الماء، وإحداهنّ (عطن).
- - الهمام: الهموم.
- - التمام: ج تميمة، خزرات كانت تعلّقها العرب لتحفظها من العين.
- ⁹ - الجاحظ، الحنين للأوطان، ص6 - 7.
- ¹⁰ - الجاحظ، رسالة الحنين الى الأوطان، ص32.
- ¹¹ - نفس المصدر، ص33.
- ¹² ينظر صلاح فضل صلاح فضل في النقد الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ط1-2007 صفحة 48..
- ¹³ - صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم، مشروع قراءة شعرية دار الفرائي بيروت لبنان ط1-2001. ص4.
- - الهمام: الهموم.

- - الجاحظ رسالة الحنين إلى الأوطان، ص 6 - 7.
- 14 - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، ص 8 - 9.
- 15 - ينظر: المصدر نفسه، ص 46.
- 16 - صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية، ص 489.
- 17 - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، ص 42.
- - أسجع: قلة لحمه (الخذ) وجاء في أساس البلاغة: وجه أسجع أي مستوي الصورة.
- 18 - الجاحظ، الحنين للأوطان، ص 15.
- 19 - صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية، ص 353.
- 20 - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، ص 43.
- 21 - المصدر السابق ص 35.
- 22 - نفسه، ص 32.
- 23 - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، ص 26.
- 24 - المصدر نفسه، ص 42.
- 25 - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، ص 12.
- 26 - نفس المصدر السابق ص 7.
- 27 - نفسه، ص 9.
- 28 - نفسه، ص 12.
- 29 - نفسه، ص 10.
- 30 - نفسه، ص 12.
- 31 - الجاحظ، رسالة الحنين إلى الأوطان، ص 17 - 18.
- 32 - صالح بن رمضان، الرسائل الأدبية، ص 333.
- 33 - المرجع نفسه، ص 330.
- 34 - ابن المدبّر أبو اليسر إبراهيم ابن محمد، الرسالة العذراء في موازين البلاغة وأدوات الكتابة ضمن رسائل البلغاء، نقلا عن صالح بن رمضان، الرسالة الأدبية، ص 340.